مبحث فى الفهم الإنسانى لجون لوك

بقلم
الدكتور محمد فتحى الشنيطى

أولا : حياة « لوك » ومقومات فكره ومؤلفاته

جرى الباحثون فى تاريخ الفكر الفلسفى على تمييز تيارين أساسيين هما التيار العقلى والتيار التجريبى . يذهب الأول إلى أن ثمة أفكاراً أولية (a priori) قائمة فى العقل قبل كل تجربة ، بينما يرى الثانى أن الأفكار لا يمكن إلا أن تكون بعدية (a posteriori) أى تأتى إلى العقل بعد التجربة لا قبلها . وليس معنى هذا أن التيار العقلى ينكر التجربة ويسقطها أو أن التيار التجريبى يستهين بالعقل ، وإنما التجريبيون يبدأون من التجربة ليصلوا إلى العقل ، والعقليون يبدأون من العقل ليصلوا إلى التجربة . فعند العقليين العقل هو المهيمن على التجربة وعند التجريبيين لا يعدو العقل أن يكون أداة تستخدم فى الانتفاع بحصيلة التجربة .

وللقرن السابع عشر — وهو الذى تنتمى إليه فلسفة « لوك » — الفضل الأكبر فى إثارة الاهتمام بكل من العقل والتجربة معاً . وله الفضل أيضاً فى تزويدنا بأهم الفروض والتأملات والخواطر بصدد ما عسى أن يكون من علاقات قائمة دائمة بين ما يمكن أن نسميه المادة وما يمكن أن ندعوه الفكر . وكان لا بد أن يثور التعارض فى وجهات النظر بين المفكرين فى ذلك القرن ، فقد كانت هنالك حركة دافعة للتحرر من رق العرف المدرسى المتزمت ، وكان لا محيص لكل مفكر من أن يختط لنفسه نهجاً معيناً يلتزم به فى النظر إلى المشكلات التى تمثل إزاءه : هل ينظر إلى الطبيعة المادية من حيث هى ، ومن خلال هذا النظر يستخلص المبادئ العامة لهذه الطبيعة ! أم يتركز جهده على النظر إلى العقل أولا ! ؟

أما « ديكارت » أبو الفلسفة الحديثة وإمام العقليين فلم يشأ من البداية أن يتورط فى النظر إلى الطبيعة نظرة مادية علمية ، بل آثر أن يتجه إلى الفكر متوسماً فيه معيناً لا ينضب للمفاهيم الأصيلة لكل علم رياضياً كان أو مادياً . وفى إطار هذه النظرة اقتصر « ديكارت » على التفسير العقلى البحت ، حتى فى تفسيره للعالم لم يشأ أن ينظر إلى المضمون الحسى ، بل اقتصر على الخصيصة العقلية له وهى الامتداد . وقد يؤخذ على هذا الاتجاه الديكارتى أنه لا يزودنا بالدعامة الأولى للبحث العلمى وأعنى بها التقاط المبادئ العامة من خلال التغلغل فى الظواهر الجزئية القائمة بالفعل فى الطبيعة ، وهذا هو الذى دعا إليه « فرنسيس بيكون » ، وواصل الدعوة

إليه تحليلا وتفصيلا « اسحق نيوتن » . بيد أن لديكارت الفضل فى أنه زود البحث العلمى فى ميدان الطبيعيات بأداة وثيقة تمكن لهذا البحث من الدقة والضبط ومن الاقتصاد فى الجهد ، أعنى بها أداة الرياضة ؛ وإن تكن هذه الأداة ضئيلة القيمة إذا لم ترتبط بالبحث العلمى النابع من صميم الواقع المادى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نلاحظ أن « ديكارت » وهو يتصدى لمشكلة المعرفة ، دمجها بميتافيزيقاه فى تفسير الوجود .

وأما « جون لوك » ، فقد كان حريصاً من البداية على وضع مشكلة المعرفة فى إطار مستقل ، وقد ارتآى أنه لا بد أولا من النظر فى شروط المعرفة وحدودها قبل النظر فى طبيعة الوجود . ومن أجل ذلك أفرد لها كتابه « مبحث فى الفهم الإنسانى » . ويقال إن الذى حدا بالفيلسوف الإنجليزى إلى نقد العقل البشرى بتحديد طاقاته وإمكانياته فى هذا الكتاب رغبته فى الوصول إلى الأسس السليمة التى ينهض عليها كل من الأخلاق والدين . وقد كان « لوك » يبغى أن يضع علماً دقيق الموازين للأخلاق ، ولذلك كان شعاره دائماً أن ثمة ميلا أصيلا نتمثله فى الطبيعة البشرية : وهو أن الإنسان يروم من المعرفة حياة خيرة سليمة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتحديد ضوابط الفهم الإنسانى . فبناء الحياة كله لا يستقيم إلا بارساء أسس المعرفة .

ولد صاحب هذه الفلسفة فى ٢٩ أغسطس سنة ١٦٣٢ فى قرية « رينجتون » Wrington بسومرست Somerset . وكان والده محامياً حباه منذ طفولته وفى صباه بخالص العناية والرعاية والتوجيه ، وكان حريصاً على أن يكفل له تربية استقلالية متحررة . وقد كان لهذا أثر عميق فى اتجاه « لوك » إلى التأمل الفلسفى المتأنى الوقور فى المعرفة والنفس والأخلاق والتربية والسياسة. ونلاحظ أثر هذه التوجيهات السديدةالتى حظى بها وهو فى رعاية أبيه فيما ضمنه كتابه « خواطر فى التربية » (١٦٩٣) ، حيث يوصى بالاستعاضة عن منهج خضوع الطفل خضوعاً أعمى لوالديه بذلك الحنان المعتدل الذى يصل بين الطرفين بوشائج متينة .

وقد استفاد « لوك » إلى أقصى حد فى المدرسة والجامعة على حد سواء بالمعرفة والخبرة معاً وكان لهذا أثره بلا ريب فى تشكيل مذهبه الفلسفى فيما بعد . أنفق ستة أعوام فى دراسة اللغات القديمة فى مدرسة « وستمنستر » على الطريقة المدرسية التى تلقاها بها « ديكارت » فى معهد « لافلش » ، ولقى عنتاً وعناء شديدين فى حفظ النصوص عن ظهر قلب كما كان يجبره على ذلك معلموه، فضلا عن كتابة موضوعات الإنشاء باللغة اللاتينية . وقد كان يضيق بذلك الجهد الذى يبذله فى غير ما جدوى . ولم يكن هنالك إلى جانب ذلك دراسات ذات شأن تتصل بالطبيعة اللهم إلا بعض المعارف الجغرافية . ولذلك نراه يحذر المربين من ذلك المنهج العقيم الذى يشدد فى استظهار النصوص، ويدقق فى دراسة اللغات بأصولها وقواعدها النحوية والصرفية ، فإن هذا من شأنه أن يطمس شخصية المتعلم ويسلبه قدراً كبيراً من حيويته ويئد ما لديه من شغف وتطلع .

وحين قصد « لوك » أكسفورد سنة ١٦٥٢ ، كانت النزعة البيوريتانية متغلغلة إلى جانب النزعة المدرسية فى مناهج الدراسة ، فواجه ذات المحنة التى واجهها « ديكارت » فى معهد « لافلش » : تزمت رجال الدين، وهيمنة الطريقة المدرسية على برامج التعليم وكما ثار « ديكارت » ثار « لوك » ، بل إن رغبة « لوك » فى النظر الفلسفى وفى التأمل والبحث قد أثارتها كتابات « ديكارت » نفسه . فإن مؤلفات «ديكارت» كما يصرح بذلك « لوك » هى التى حفزته للبحث وشجعته على مواجهة ما فى الاتجاه المدرسى من عقم . وقد تهيأت « لجون لوك » الإحاطة بدراسات المفكر

الفرنسى « جسندى » الذى كان يهاجم أسس فلسفة « ديكارت » ، كما أحاط أيضاً بآراء الفيلسوف الإنجليزى « توماس هوبز » . وقد صادفت الفترة التى قضاها فى الجامعة ريحاً من التسامح جعلت القائمين عليها يفسحون صدورهم لحرية التفكير ، وبخاصة لأولئك الذين يدينون بالعقيدة البروتستانتية . وقد ظل « لوك » يدعو للتسامح طيلة حياته ، وانعكست هذه النزعة عنده فيما كتب ، يعزز هذا أنه فى مستهل حياته كان يعتزم الانتماء إلى رجال الدين أى الاتجاه نحو الكنيسة ، بيد أن إيمانه بالتسامح ورغبته فى التحرر جعلتا تنفيذ هذا العزم أمراً مستحيلا .

وفى مؤلفه « رسالة عن التسامح » الذى صدر سنة ١٦٨٩ ، شدد « لوك » النكير على كل شخص ينصب من ذاته وصياً على الآخرين ، يفرض عليهم عقيدته عنوة وقسراً . وثمة عبارة له لها دلالتها فى هذا الصدد يقول فيها : إن كل من يبحث ثم ينتهى من البحث إلى أن يأخذ الخطأ دون الصواب أو الباطل دون الحق ، فقد أدى واجبه خيراً ممن يسلم بالصواب أو بالحق تسليما دون بحث أو فهم » . ويختص « لوك » الدراسات الأخلاقية والمباحث الدينية بأهمية عظمى ، وكم تمنى لو اختزلت القواعد الأخلاقية فى مجموعة منسقة من المبادئ العامة ، ولو اختصرت الطقوس الدينية فى شعائر بسيطة تخلو من التعقيد والمبالغة .

وقد استقر عزم « لوك » على دراسة الطب ، ولذلك عكف على البحث فى العلوم المرتبطة به ، وهيأت له صداقته للعالم البحاثة « روبرت بويل » دراسات فى الفيزياء والكيمياء . وكان اهتمامه بالبحث العلمى حافزاً له على التعمق من طريق يختلف عن ذلك الذى سلكه « ديكارت » . وكان « بويل » يعنى عناية كبرى بالمنهج التجريبى فى الكيمياء ، وكان يزدرى محاولات الباحثين الذين كانوا يتخذون من هذا العلم وسيلة لتحقيق غايات نفعية بعيدة عن المجال العلمى الخالص . وقد كان « بويل » أول من أوضح الهدف من التحليل الكيميائى ، أعنى الكشف عن العناصر التى تتألف منها المواد المركبة ، وهى العناصر التى يمكن تحليلها إلى عناصر أبسط منها . وقد تنبأ « بويل » بأن فى وسع الإنسان مع البحث المتصل أن يكتشف كثيراً من العناصر التى لا تخطر على باله ، كما أنه شك فى كثير من المواد التى كانت معتبرة مواد أولى . وقد انعقدت أواصر الصداقة أيضاً بين « لوك » وبين علم من أعلام الطب هو العلامة « سيدنهام » Sydenham وكان « سيدنهام » حريصاً على الانتفاع بالمنهج التجريبى فى ميدان الطب ، وقد ضمن أبحاثه كتيباً بعنوان « فن التطبيب » وجه فيه الأنظار إلى ضرورة العناية بالملاحظات والاعتماد عليها لا على الأحكام المسلم بها . وكان « لوك » يصحبه فى زياراته لمرضاه وينتفع بنصائحه ، وقد استفاد من ذلك فوائد جمة .

تلكم صورة لبعض صداقات « لوك » لأعلام الباحثين فى الميدان التجريبى وهى تدلنا على مدى تأثير هؤلاء فضلا عن دراساته فى هذا الميدان فى تكوينه الفلسفى . بيد أن « لوك » لم يأنس فى فن الطب اشباعاً لشغفه بالمعرفة ، فلم يشأ أن يجعل من الطب مهنة تلازمه طوال حياته . وسرعان ما امتدت اهتماماته إلى الميدان الاجتماعى والسياسى فكانت صداقته لشخصية من ألمع الشخصيات السياسية فى عصره ، وهو اللورد « شافتسبرى » . التحق بخدمة هذا اللورد طبيباً للأسرة وسكرتيراً خاصاً له ومعلماً لأولاده . وكانت آراء « لوك » السياسية آراء تحررية وكان ينتمى إلى حزب « الهويج » وكذلك كان شأن اللورد[1] .

---

(١) الحزبان الرئيسيان فى إنجلترا فى ذلك العصر هما « الهويج » و « التورى » ، والحزب الأول هو المتحرر والثانى محافظ . وكان أنصار الهويج حريصين على التوسع فى سلطات البرلمان وتضييق الخناق على سلطان الملك .

ولما أفل نجم اللورد « شافتسبرى » فى الميـــدان السياسى سنة ١٦٧٢ ، انزوى « لوك » منطوياً على نفسه . بيد أن السلطات الحاكمة أخذت تنظر إليه نظرة ريبة وتشكك ، ملاحقة له مضيقة عليه الخناق فضلا عن اعتلال صحته ، مما حدا به إلى النزوح إلى فرنسا إبان أعياد الميلاد . وفى فرنسا قضى بضعة أعوام متنقلا بين باريس وليون ومونبلييه وأفينيون ، وكان معنياً بالبحث التاريخى والتأمل فى الميدان الاجتماعى ، واتصل بكثير من المفكرين من أتباع « جسندى » المناهض للفلسفة الديكارتية كما اطلع على الكثير من الكتب حول هذه الفلسفة . وفى أبريل سنة ١٦٧٩ عاد من باريس إلى لندن مفعماً بأجمل الذكريات .

وفى سبتمبر ١٦٨٣ رحل إلى هولندا ، وأنفق فى تلك البلاد أكثر من خمس سنوات شبه منفى من وطنه ، وكانت سنوات زاخرة بالنشاط الفكرى والعمل السياسى . وفى تلك الفترة كتب « رسالة عن التسامح » التى ألمعنا إليها . (كتبها باللاتينية فى غضون شتـــاء ١٦٨٥ — ١٦٨٦ ثم نشرت سنة ١٦٨٩ وترجمت بعد ذلك إلى الإنجليزية) . وفى تلك الفترة أيضاً اشتد اهتمامه بالبحث فى إمكانيات العقل وحدوده ، وتبلورت فى ذهنه الأفكار الأساسية لكتابه « مبحث فى الفهم الإنسانى » . ومن هنا يتضح لنا أن شواغله السياسية لم تحل بينه وبين الانصراف إلى التأمل ، بل يمكننا أن نقول إن لاقتحام « لوك » معترك السياسة وخوضه الحياة العملية ومغامراته بين الإقامة والرحيل أعمق الأثر فى تخصيب مذهبه الفلسفى وفى تلك الصبغة العملية التجريبية التى اصطبغت بها نظرته الفلسفية .

وقد ظهر مؤلفه الضخم « مبحث فى الفهم الإنسانى » فى مستهل سنة ١٦٩٠ . ويعد هذا الكتاب بحق عملا من الأعمال الفلسفية الخالدة . يذكر لنا صاحبه فى مقدمته أنه عكف على تأليفه إثر مناقشة جرت بينه وبين بعض الأصدقاء حول إشكالات تتصل بالدين والأخلاق . وقد ارتآى أن من الخير لنا أن نشرع فى تحديد طبيعة تصوراتنا وفى تحليل أصول مفاهيمنا ، قبل أن يناقش بعضنا البعض الآخر فى مشكلات شائكة ضاربة فى صميم حياتنا ، ولو فعلنا لاستطعنا أن نجعل مناقشاتنا مثمرة مفضية إلى نتائج مقنعة . ويلاحظ أن « لوك » قضى فترة طويلة فى إعداد هذا الكتاب أثناء مقامه فى فرنسا وإبان منفاه فى هولندا . ولئن كان هذا السفر القيم قد صدر سنة ١٦٩٠ ، فإن « لوك » قد أنجزه بالفعل سنة ١٦٨٧ ، وهو يضم أربعة أبواب : الباب الأول يتصدى لنقد نظرية الأفكار والمبادئ الفطرية . وفى الباب الثانى عرض للأصول التى تنبع منها أفكارنا ، أى تحليل للتجربة الحسية ، ورد الأفكار المركبة إلى أبسط عناصرها . وفى الباب الثالث بحث فى صلة الفكر باللغة وتأثير الألفاظ فى التفكير ، وتحليل للفلسفة المدرسية على ضوء هذه العلاقة بين اللغة والفكر ، فهى فى نهاية الأمر فلسفة ألفاظ وليست فلسفة معـــانى ومضامين . وفى الباب الرابع والأخير يعنى « لوك » بتحديد الإطار العام للمعرفة ، وبذلك نجد أن نظرية المعرفة تتبلور فى هذا الباب الأخير ، ومن هنا يذهب كثير من الباحثين إلى أن هذا الباب والباب الثانى أى تحليل التجربة الحسية كتبا قبل البابين الأول والثالث .

إن فلسفة « لوك » كما بينا وجدت غذاء دسما فى مغامراته وتجاربه وخبراته ، وفى مواجهته للمشكلات الدينية والأخلاقية والسياسية ، ولا ريب فى أن نظراته فى الدين والسياسة والتربية والأخلاق قد تأثرت بنظريته فى المعرفة ، بحيث يمكننا أن نقول إن هناك فى صميم فكر « لوك » الفلسفى تجاوباً أصيلا بين هذه الجوانب المختلفة التى امتد إليها نشاطه الفكرى . ومن هنا جاء إنتاجه غزيراً متنوعاً ، فصدر له فى نفس العام الذى صدر فيه « مبحث فى الفهم الإنسانى » أى سنة ١٦٩٠

كتابه : « بحثان فى الحكومة » فى جزئين يضم نظريته السياسية . وتنطوى هذه النظرية فى صميمها على خصال مفكر يؤمن بكرامة الإنسان وبحرية الفكر والصحافة ويدعو إلى التسامح فى مجال العقائد الدينية ، والعمل على أن يكون للدولة التوجيه والإشراف فى المجالات الاقتصادية من أجل النهوض بالمجتمع . ويعتبر هذا الكتاب تقنيناً لأصول الثورة التى تمت سلمياً سنة ١٦٨٨ ، وكانت تستهدف إخضاع الملك للرقابة البرلمانية وإشراف البرلمان على الميزانية والجيش ، هذا إلى تعزيز استقلال القضاء ، والأخذ بفكرة مسئولية الوزراء . بيد أننا ينبغى أن ننبه إلى أن هذه الثورة قد تبلورت فى تصور أرستقراطى للمجتمع . فقد كان معظم الناس فى تلك الفترة حريصين على أن يدفعوا عن أنفسهم بحماس بالغ تهمة اعتناق الديمقراطية وكأنها رجس من عمل الشيطان . ويعد « جون لوك » فيلسوف هذه الثورة ، وتمتاز آراؤه بالاعتدال والتبصر . وفى هذا الكتاب الذى يشغل مكاناً مرموقاً فى تراث الفكر السياسى ، يعرض « لوك » فى جزئه الأول عرضاً تحليلياً نقدياً للنظريات المنصبة على شكل الحكم . فالحكومة تنهض على أحد الأسس التالية : إما أن تستمد سلطتها من الله ، وإما أن تكون هذه السلطة مرتكزة إلى القرابة أو أن تكون مستندة إلى العقد . وقد وضح « لوك » أن « فيلمر » أثبت أن الشكلين الأولين متماثلان ، سواء أكانت السلطة منبثقة من الله أم مستمدة من القرابة . وعلى هذا يرى « لوك » أن ثمة احتمالين جوهريين لأساس الحكم : إما أن تكون الحكومة تعبيراً عن إرادة الله أو أن تنهض على أساس عقد بين المواطنين . اختار « لوك » الاحتمال الثانى ، فوضع أسس نظرية العقد الاجتماعى ، باسطاً هذه النظرية فى الجزء الثانى من كتابه مهاجماً الحق الإلهى للملوك ، مدافعاً عن حرية المواطنين . وقد ارتأى أن الحكم لا يمكن أن يكون مشروعاً إلا إذا أتى استجابة لرضا المواطنين وتلبية لرغباتهم .

ويعد بحث « لوك » فى « معقولية المسيحية » وقد صدر سنة ١٦٩٥ دراسة جريئة لمفكر حر ، توخى أن يستخلص مبادئ المسيحية صافية نقية ، من الكتاب المقدس . وقد بين أن العقيدة تصفو إذا تحررت من شوائب الطقوس المعقدة ونأت عن المناقشات اللفظية العقيمة . وتعتبر دراسة « لوك » للمسيحية فى تلك الفترة ذياداً عن وقار الدين واستنكاراً صريحاً لألوان التعذيب والاضطهاد التى كان يسام بها الناس أحياناً من رجال الكنيسة ، وتبسيطاً للعقيدة بحيث لا تجثم على الأنفاس صيغاً جوفاء تشوه جمال التقوى . لذلك لا نعجب إذ يغدو « لوك » هدفاً لحملات شديدة من رجال الدين فى عصره ، اتهموه فيها بالمروق على العقيدة الدينية والتهكم على الكنيسة . والإنصاف يقتضينا القول بأن فيلسوفنا كان مسيحياً مخلصاً تقياً ، تشهد حياته كما تنم رسائله وكتاباته عن عمق مشاعره الدينية . ولم يقصر رجال الكنيسة هجومهم على آرائه الدينية ، بل طعنوا كذلك فلسفته ، لأنهم رأوا أن هذه الفلسفة هى أساس نظرته للدين . وليس من شك فى أن النزاع بين الكنيسة والفلاسفة على أيام « لوك » كان مظهراً من مظاهر التعارض الصارخ بين العرف المدرسى وبين حركة الاستنارة والتجديد . وليس أدل على ذلك من شدة العنف فى حملة رجال الكنيسة على « لوك » ، على حين أنه يعد من أصحاب الآراء المعتدلة . وقد أفضت هذه الحملة إلى تحريم الاطلاع على كتابه « مبحث فى الفهم الإنسانى » فى جامعة أكسفورد .

كان لهذا أسوأ الأثر على الفيلسوف ، فاستبد به الحزن ، ولم يكن يملك إلا الحسرة والسخرية المرة من هذا الموقف الشائن . وأنفق أيامه الأخيرة فى هدوء ودعة إلى أن وافته المنية فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٠٤ .

وقد كان الشعار الذى يعتز به متجلياً فى عبارة ضمنها آخر خطاب إلى صديقه الحميم « ليمبورش » : « إن عشق الحقيقة لذاتها أهم جانب فى الكمال البشرى ، وقمة جميع الفضائل » .

ثانياً : تلخيص تحليلى لكتاب « مبحث فى الفهم الإنسانى »

١ — نقد نظرية الأفكار والمبادئ الفطرية :

يستنكر « لوك » رأياً شاع بين عدد من المفكرين — ومن الواضح أنه يشير إلى « ديكارت » والديكارتيين وإلى أفلاطونيى « كمبردج » — مفاده أن ثمة مبادئ فطرية من قبيل أن الشىء لا يناقض ذاته وأن الكل أكبر من الجزء . والحجة التى يحتجون بها على فطرية معرفتنا بهذه المبادئ هى أننا جميعاً نوافق عليها . ولئن كانت الموافقة الكلية ليست فى ذاتها دليلا على فطريتها ، فالثابت مع ذلك أن هذه الموافقة الكلية غير مسلم بها . ذلك أن عدداً كبيراً من أفراد الجنس البشرى لم يسبق لهم البتة أن تصوروا مثل هذه المبادئ ، كالأطفال والبدائيين .

ويمضى بنا هذا إلى نقطة أخرى ، فقد يحتج بأننا قادرون على الأقل على معرفة هذه المبادئ بالقوة . فإذا كان هذا يعنى أننا نملك من البداية قدرة على معرفتها فإن « لوك » لا يعترض على ذلك إذ يقر بالقدرات الطبيعية أو الملكات . أما إذا كان معنى هذا أن ثمة قضايا مضمرة فى الذهن ، من قبيل « الشىء هو ذاته » ، ولكنها لم يصرح بها بعد ، كان رد « لوك » أنه ليس ثمة قضية يمكن أن يقال إنها فى الذهن الذى لم يعرفها وليس على وعى بها . فإذا كان المقصود بعد ذلك أننا سنعرف هذه المبادئ حين نستدل ، يجيب « لوك » بأننا سنعرف أيضاً أن ٧ + ٥ = ١٢ حين نستدل ، ولكن لا أحد يفترض هذه معرفة فطرية . ويضيف « لوك » فضلا عن هذا أننا لا نعرف هذه المبادئ بالاستدلال مع أننا نستخدمها فيه . « فإن من يجشم نفسه مشقة النظر بشىء من الانتباه فى عمليات الفهم ، سيجد أن هذا القبول الحاضر للذهن لبعض الحقائق لا يعتمد على سجل أصلى فى العقل أو استخدامه (أى فى الاستدلال) ، بل على ملكة للذهن متميزة تماماً منهما » وهى ملكة الحدس كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد .

ليس فى مستطاعنا إذن أن نتخذ من الموافقة الكلية — على فرض قيامها — حجة على فطرية معرفة المبادئ . كما أنه ليس من الممكن أيضاً أن نطلب لهذه المعرفة أية أولية فى الزمن ، فمن الواضح أن معرفة المبادئ من حيث هى مجردة تأتى فيما بعد . فالإحساس وتمييز الأحمر من الأبيض ، كل ذلك سابق على معرفتنا بمبدأ عدم التناقض ، فمن الغريب أن يوصف هذا المبدأ بأنه مطبوع فى العقل أصلا .

بيد أن الحجة ليست خاصة بالسبق الزمانى ، بل بالضرورة المنطقية . فالمبادئ ضرورية ضرورة منطقية وواضحة بذاتها . وما نكاد نفهم ما تعنيه الكلمات فى القضية « الشىء هو ذاته » حتى يتعين تصديقها . فهل مثل هذه الضرورة وهذا الوضوح الذاتى يفسران فقط بالأخذ بأن المبادئ مطبوعة فطرياً فى الذهن ؟ يرى « لوك » أن من المسلم به أن المبادئ واضحة بذاتها ، ولكن الأمر كذلك فى حقائق أخرى كثيرة لا تعتبر حقائق فطرية ، مثل ذلك ، الحقائق الرياضية ، فسواء أكانت هذه الحقائق ضرورية أم واضحة بذاتها فليس هذا دليلا على فطريتها . إن المبدأ « الشىء هو ذاته » مبدأ ضرورى مسلم به لا لأنه مبدأ فطرى ، بل لأن اعتبار طبيعة الأشياء المشمولة فى هذه الكلمات لا يجعلنا نفكر فيها على نحو آخر . إننا نتقبلها بالحدس كما نتقبل كون ٢ ، ٢ تساوى ٤ .

يخلص « لوك » من هذا بأن ليس ثمة ما يظهر أن المبادئ المستخدمة فى التأمل كمبدأ الهوية ومبدأ عدم

التناقض تعرف معرفة فطرية ، فماذا يكون الأمر بالنسبة للمبادئ العملية التى يدعى كونها فطرية ! يبدأ « لوك » بالتساؤل عما إذا كان هنالك مبادئ من هذا القبيل نتفق عليها جميعاً ، فيجد من الضرورى التسليم بوجود بعض ميول مشتركة فى الجنس البشرى . فمن المشترك عند الناس جميعاً « الرغبة فى السعادة وكراهة الشقاء » ، بيد أن هذه نزعات وليست انطباعات للحقيقة فى الفهم . أما فيما يختص بالمبادئ الأخلاقية ، فهنالك اتفاق أكبر على المبادئ التأملية منه عليها ، وبالتالى فإذا كنا قد تبينا أن هذه الأخيرة ليست فطرية فالأولى ليست بالأحرى كذلك . ومن غاية الوضوح أن منبع مبادئنا الأخلاقية هو عقلنا ، أو التربية التى نتلقاها من الآخرين أو آراء الأصدقاء المحيطين بنا ، وعرف البلاد التى نعيش فيها . ويعتقد « لوك » أن ثمة قوانين للأخلاقية ثابتة وسرمدية ، ولكنها لا تعرف بأية معرفة غامضة فطرية وهى ليست مغروسة ابتداء فى فى الأذهان . ومن الأكيد أنه إذا كان الناس جميعاً قد عرفوا المبادئ الأخلاقية معرفة فطرية لما شاهدنا كثيراً من الأمم تخرق بعض هذه المبادئ أو معظمها ولا تخجل من ذلك .

٢ ــ التجربة منبع الأفكار :

بعد أن ندد « لوك » بنظرية الأفكار الفطرية ، تصدى للبحث فى عناصر المعرفة القائمة فى الذهن . وقد شبه الذهن بصفحة بيضاء ليس فيها خصائص ولا أفكار . وهنا يحق لنا أن نتساءل من أين جاءت كل هذه الذخيرة من الأفكار التى شكلتها مخيلة الإنسان التى لا تنفد لها طاقة ؟ يجيب « لوك » على هذا التساؤل بأنها تأتى من التجربة . فبالملاحظة التى نديرها على الموضوعات الخارجية المحسوسة وحول النشاط الداخلى للذهن نتزود بالإدراك والتفكير وهما الركنان اللذان يرتكز عليهما النشاط العقلى .

وبناء على ما تقدم فهنالك مصدران أساسيان لجميع الأفكار التى تشكل وحدها دون غيرها خامات النشاط العقلى بأسره :

أولا : الإحساس الخارجى : فالحواس تنقل إلى الذهن إدراكات عديدة متميزة تميز الطرائق المتنوعة التى أثرت بها الموضوعات الخارجية عليها . ومن ثم تصل إلينا أفكار الأصفر والأبيض والحار والبارد والصلب واللين والمر والحلو ، وهى ما ندعوه صفات حسية تشكل فى الذهن الإدراكات . هذه الإدراكات هى مصدر معظم الأفكار التى لدينا ، وهى تعتمد تماماً على الحواس ، هذه الإدراكات هى الإحساس الخارجى .

ثانياً : الإحساس الباطنى : ويتمثل فى ذلك النشاط الذى يمارسه الذهن بعملياته التى تدور حول الأفكار التى انتقلت إليه من الحواس ، من إدراك وتفكير وشك واعتقاد ، وينجم عن ذلك بعض انفعالات مثل الرضا والضيق . ونستقبل من هذا النشاط أفكاراً متميزة تميز الأفكار التى نستقبلها من الموضوعات الخارجية التى تؤثر على حواسنا . مثل هذه الأفكار لا علاقة لها بالإحساس الخارجى فهى تنشأ من ثم عن الإحساس الباطنى .

هذان هما المصدران الوحيدان اللذان تأتى منهما الأفكار البسيطة وليس فى الذهن أدنى فكرة لم تأت إليه عن أحد هذين المصدرين . وإذ تنجم معرفتنا عن مصدرين متميزين ، الإحساس والإدراك ، نرى « لوك » يتخذ موقفاً مختلفاً تماماً عن موقف المدرسة الحسية . فبينما يذهب « جسندى » و « هوبز » وهما مفكران سابقان عليه ، و « كانديلاك » و « هلفشيوس » وهما متأخران عنه إلى أن انطباعات الإحساس هى المصدر النهائى لكل ما لدينا من معرفة ، يتميز « لوك » بالمصدر الثانى للأفكار وهو الإحساس الباطنى أو

الإدراك المتمثل فى نشاط الذهن . وبذلك تكون نظريته فى مصدر المعرفة نظرية تجريبية وليست حسية على نحو ما نجد عند أسلافه وأخلافه من الحسيين .

ويعتبر الباب الثانى من « المبحث » محاولة لإحصاء الأفكار البسيطة وهى أفكار الإحساس وأفكار الإدراك ورد أفكارنا الأخرى مهما تكن مركبة إلى هذه الأفكار البسيطة . فأفكار الإحساس بعضها يأتى إلى الذهن من حاسة واحدة مثل الألوان والأصوات والأذواق والروائح والحرارة والبرودة أما الأفكار التى نحصل عليها من أكثر من حاسة فهى الحيز أو الامتداد والشكل والسكون والحركة . وثمة أفكار تنجم عن نشاط الذهن كاللذة أو البهجة والألم أو الضيق والقوة والوجـود والوحدة .

هذه الأفكار البسيطة هى خامات معرفتنا . وحين يتزود بها العقل تكون له القدرة على تكرارها والمقارنة بينها وتوحيدها بطرائق لا تكاد تنتهى ، ويمكنه بذلك أن يشكل منها أفكاراً مركبة جديدة . ولكن ليس فى وسع العقل على أى نحو من الأنحاء أن يبتكر أويشكل فكرة واحدة بسيطة جديدة فى الذهن لا تأتى من المصدرين اللذين أشرنا إليهما . إن قدرة الإنسان فى هذا العالم الذى يكتنفه لا تتخطى تشكيل الخامات المادية التى فى متناول يده تشكيلا جديداً دون أن يكون فى وسعه خلق ذرة من مادة جديدة أو أن يعدم ذرة من مادة قائمة ؛ وكذلك شأن عقله يشكل من الخامات ما يروم ولا يسعه أن يخلق خامة أو يعـدم خامة موجودة ؛

وفى استقبال الأفكار البسيطة لا يبدى العقل نشاطاً إيجابياً ، وإنما دوره سلبى بحت ، فهو لا يستطيع أن يرفض تقبل هذه الأفكار أو أن يعدمها . فهو أشبه بالمرآة لا يمكنها أن ترفض استقبال الصور المنعكسة على صفحتها أو تعدل فيها أو تمحوها . فالعقل قبل دخول الأفكار البسيطة ، أشبه بحجرة مظلمة والإحساس الخارجى والإحساس الباطنى بمثابة النوافذ التى يلج منها الضوء . ولكن ما يكاد الضوء أن ينفذ إلى هذا المكان المظلم ، حتى يكون للعقل قدرة لا حد لها لتعديل هذا الضوء وتحويله . ففى وسع العقل أن يبدع أفكاراً مركبة من أفكار بسيطة فى تنوع لا ينتهى بالجمع والمقارنة والفصل . وهذه الأفكار المركبة لا يقابلها محسوس خارجى كما هو الشأن فى الأفكار البسيطة .

وتشمل الأفكار المركبة أنماطاً ثلاثة :

١ ــ الضروب ، وهى تدل على صفات لا تتقوم بذاتها ، بل توجد فى غيرها كالجمال فى الزهرة أو الحديقة .

٢ ــ الجواهر ، وهى أفكار دالة على أشياء توجد بذاتها وتوصف بالضروب ، كالزهرة والحـديقة والإنسان .

٣ ــ العلاقات ، وهى أفكار تعبر عن روابط كفكرة الأبوة والأكبر والأصغر .

والأفكار المركبة وهى ثمرة النشاط الإيجابى للعقل جعلت الفلاسفة العقليين يظنون أنها فطرية نابعة منه ولا دخل للتجربة فيها ، ولذلك يحرص « لوك » على تحليل بعض الأفكار المركبة كأمثلة وشواهد يثبت بها أنها لا تعدو فى نهاية الأمر أن تكون أفكاراً بسيطة آتية بدورها من التجربة . ففكرة اللامتناهى لا تعدو أن تكون ضرباً بسيطاً للكم ، ذلك لأن العظم ليس إلا ضرباً بسيطاً للمكان ، والسرمدية ضرباً بسيطاً للزمان . فهى من قبيل الأفكار السلبية تنشأ حين يمضى العقل قدماً فى التفكير دون بذل أى جهد لوقف توغله الذى لا يقف عند حد . فهذه الفكرة وليدة نشاط العقل بتأليفه بين أفكار بسيطة مستمدة من التجربة . فالعقل يبدأ من المتناهى ، ذلك أننا لما كان وجودنا وجوداً متناهياً محدودا بالمكان والزمان فإننا نتصور مكاناً

لا نهاية له وزماناً لا يحده حد وذلك بطريق المقارنة والتخيل .

أما فكرة الجوهر ، فهى التى يسقط فى يد « لوك » إزاءها . فإذا فحصنا فكرتنا عن الجواد أو الإنسان أو قطعة الذهب ، ففى وسعنا أن نحل هذه الفكرة إلى عدد من الأفكار البسيطة مثل الامتداد والشكل والصلابة والوزن واللون مجتمعة . ولكن من ملاحظة ما شاع بين الفلاسفة فى عصر « لوك » وقبله من أن ثمة جوهراً معيناً تلتقى عنده هذه الصفات أو تقيم فيه وتنجم عنه ، يتساءل « لوك » لئن كان فى وسعنا أن نشكل فكرة واضحة عن الصفات المختلفة ، فهل نستطيع أن نشكل فكرة واضحة أو نعطى تفسيراً معقولا للجوهر ؟ ويجيب صراحة بالسلب ، ففكرة هذا الجوهر « فكرة مشوشة مضطربة تنتمى إليها الصفات وتقيم فيها » . إن اسم جوهر يدل على سند ، مع أننا لا نملك يقيناً أية فكرة واضحة ومتميزة عن ذلك الشىء الذى نفترض كونه سنداً .

إن من يتساءل عن كنه الجوهر لن يكون أسعد حالا من الهندى الذى حين زعم أن العالم يحمله فيل ضخم سئل وما الذى يسند الفيل ؟ فأجاب بأنه سلحفاة ضخمة ، فحين سئل من جديد وما الذى يسند السلحفاة ؟ أجاب أنه شىء ما لا يعرفه . إن اللجوء إلى « شىء ما » معناه أننا نتحدث كالأطفال حين يسألون عن معنى هذا الشىء الذى لا يعرفونه يجيبون بأنه شىء ما ولكنهم لا يعرفونه . ومن ثم يرى « لوك » أن التمييز بين الجوهر والضروب أو الأعراض تمييز لا نحسم فيه . ويبدو أن ثمة نبرة شك هنا عند « لوك » نستشفها من خلال تحليله .

ويوصى « لوك » أولئك الذين يسرفون فى الحديث عن الجوهر أن « ينظروا ما إذا كانوا فى استخدامهم لها يطبقونها على الله اللامتناهى تطبيقها على الروح المتناهى والجسم بمعنى واحد ، وما إذا كانت تمثل ذات الفكرة عندما تسمى تلك الموجودات المختلفة غاية الاختلاف جواهر » . وهو يرى أن كلمة جوهر حين تدل على المادة وعلى الذهن (متناهياً وغير متناه) تعبر فى كل عن معنى مختلف تمام الاختلاف . ولعل مما يجعل الأمر واضحاً فى المناقشات الفلسفية ، على الأقل بين أولئك الذين يسلمون بثنائية المادة والذهن ، أن يستعاض عن كلمة جوهر حين تطبق على الموضوعات غير الجسمية بكلمة ذهن ، وحين تطبق على الموضوعات الجسمية بكلمة مادة .

وتأسيساً على ذلك يتناول « لوك » الروح اللامادى والجسم ، فهو يرى أن ليس ثمة صعوبة فى فكرة روح لامادى كما أنه ليس ثمة مشقة فى فكرة الجسم . وليس ثمة بالتالى تناقض ما فى كون الفكر يمكن أن يوجد منفصلا ومستقلا عن الصلابة . كما أنه ليس ثمة تناقض فى كون الصلابة يمكن أن توجد منفصلة ومستقلة عن الفكر ، فهما معاً فكرتان بسيطتان مستقلة كل منهما عن الأخرى . وما دامت لدينا فكرتان بسيطتان عن الفكر والصلابة ، فلسنا ندرى لم لا نسلم بوجود شىء مفكر بدون صلابة ، كما نسلم بوجود شىء صلب بدون تفكير أعنى المادة ، ما دام ليس من العسير أن نتصور كيف أن الفكر يمكن أن يوجد بدون المادة والمادة يمكن أن توجد بدون الفكر .

ويختتم « لوك » الباب الثانى بفصل قصير ولكنه مثير للاهتمام عن تداعى الأفكار . وقد يكون « لوك » أول من استخدم هذا الاصطلاح وهو يعنى به أن لبعض الأفكار ارتباطاً طبيعياً ، وبعض الأفكار الأخرى تلتقى فى أذهان الناس بحيث لا تكاد فكرة تعن للذهن حتى تتوارد سائر الأفكار المرتبطة بها . ومن الأمثلة التى يسوقها على ذلك : أن بعض الأطفال يقترن عندهم إحساسهم بالألم ببعض الكتب بحيث يصبح الكتاب مكروهاً لهم وتغدو القراءة أيضاً عذاباً لا يطاق .

٣ ــ تحديد الإطار العام للمعرفة[1] :

لم يكن « جون لوك » أول فيلسوف انجليزى بذل عناية كبرى للموضوعات السيكولوجية ، ولكن فى كتابه « مبحث فى الفهم الإنسانى » دراسات مثمرة وملاحظات قيمة جعلته أنفذ تأثيراً فى هذا المجال ، بحيث أن الباحثين الذين يؤرخون لعلم النفس ينوهون بلوك دائماً حين يتحدثون عن الأصول السيكولوجية للمعرفة . بيد أن غاية « لوك » هى البحث فى طبيعة المعرفة الإنسانية وحدودها ، ولا شك أن هذا البحث يقتضى تحليل عناصر المعرفة أى أصولها السيكولوجية ، وهذا هو ما نهض به « لوك » فى الباب الثانى ، فهنالك الجانب الذاتى أى الذات العارفة وهنالك الجانب الموضوعى أى الأشياء الخارجية ، وهنالك الارتباط بين الذات والموضوع بالإحساس والإدراك والتصورات . ثم تحديد الإطار العام للمعرفة بطريقة التحليل المنطقى التى لاحت بوادرها فى الفصول الأخيرة من الباب الثانى وبدت واضحة غاية الوضوح فى الباب الرابع .

ففى الباب الرابع تقييم للعلاقات وهى النمط الثالث من أنماط الأفكار المركبة وتحديد لطبيعة الحدس والتفرقة بينه وبين البرهان ، وكل هذه جوانب أشار إليها « لوك » فى عرضه لعناصر المعرفة وأرجأ النظر إليها نظرة تحليلية حينما يفرغ إلى النظرة المنطقية الشاملة .

يرى « لوك » أن الذهن لا يسعه اكتساب المعرفة إلا إذا عمد إلى الربط بين الأفكار بعضها والبعض الآخر وينجم عن ذلك العلاقات :

١ ــ الهوية .

٢ ــ الإضافة .

٣ ــ الارتباط الضرورى .

٤ ــ الوجود الحقيقى .

فالهوية مفادها أن الفكرة تكون على ما هى عليه والفكرة الواحدة ليست هى الفكرة الأخرى وهى مبدأ عام شامل فى المنطق لا يستطاع تصور معرفة بدونه . وفى الإضافة ترتبط الأفكار بعلاقات مجردة عديدة كقولنا إن المثلثين تتساوى مساحتهما لو تساوت فيهما القاعدة والارتفاع . أما المبدأ الثالث وهو الارتباط الضرورى فيتمثل فى الأبحاث المنصبة على ظواهر الطبيعة والتى تستهدف اكتشاف القوانين أعنى الارتباط العلى بين الأشياء . أما المبدأ الرابع وهو الوجود الحقيقى ، فيتضح فى كل قضية نؤكد فيها وجود جوهر أو ننفى وجوده مستقلا عن إدراكنا مثل ذلك القضية القائلة : « أنا موجود » .

ويقتضى الارتباط الضرورى معرفة حدسية ندرك بها العلاقة إدراكاً فورياً مثلما تدرك العين الضوء . والمعرفة الحدسية لا تتوسل بالاستدلال كوسيط ، وهى معرفة تفرض ذاتها علينا فلا نستشعر تجاهها تردداً ولا نخامرنا فيها شك . وعلى هذه المعرفة الحدسية ينهض اليقين والوضوح . ههنا نرى « لوك » وقد أصر من قبل فى الباب الثانى على أن المعرفة تنهض على اكتساب أفكارنا من التجربة بالإحساس الخارجى والباطنى دون الارتكان إلى أفكار فطرية سابقة على التجربة ، يذهب إلى أن الحدس أو الوضوح الذاتى لا يقل شأناً عن التجربة . بيد أننا نلاحظ أنه رغم تأكيده لأهمية الحدس فى المعرفة يقر بأن مجاله محدود لقصور الذهن البشرى . فالذهن فى كثير من الأحيان لا يدرك العلاقة القائمة بين فكرتين إدراكاً فورياً ، بل يلوذ بأفكار تتخذ صورة الاستدلال من التجربة ، ومن هنا يلاحظ « لوك » أن البديهيات الهندسية تدرك بالحدس المباشر على حين أن حقائق الهندسة تخضع لبراهين تجعل الذهن

---

(١) يقتضينا الحرص على تسلسل الأفكار الأساسية للكتاب فى هذا التلخيص التحليلى أن ننتقل من الباب الثانى حيث يستعرض « لوك » عناصر المعرفة إلى الباب الرابع حيث يحدد الإطار العام لها مرجئين الباب الثالث وهو عن صلة اللغة بالفكر إلى نهاية المطاف .

لا يتقبل النتيجة بيقين مباشر مطلق ، بل يتأدى إليها بالتدريج .

وكما أن للمعرفة شكلا حدسياً فلها كذلك شكل برهانى يلجأ إليه الذهن لعجزه عن إدراك جميع الأشياء بطريقة حدسية . وهنالك شكل ثالث أقل يقيناً حين ينظر إلى الأفكار على أنها مظاهر للوجود الحقيقى لشىء ما يقع خارج الإحساس . ولهذا الإدراك وضوح ينتفى معه الشك فيه . مثل ذلك إدراك الشمس عند النظر إليها نهاراً ، يختلف عن إدراكها عندما تخطر فكرتها للذهن ليلا . فالفكرة فى الإدراك الأول تمثل شيئاً واقعيا وفيها يقين أقل من يقين المعرفة الحدسية أو البرهان العقلى ، ولكنه يقين فى درجة أعلى من المعرفة الاحتمالية .

هنا يقر « لوك » بوجود الأشياء الفعلى دون أن يلتمس تفسيراً لهذا الوجود ، بل يرده إلى الإرادة الإلهية وإن كان يعترف بأن هذا ليس دليلا مقنعاً . وهنا يحق لنا أن نتساءل كيف يتأتى لنا أن نحكم باتفاق الأفكار مع الواقع ما لم نتوصل إلى الوجود الواقعى على نحو مستقل عن الأفكار ذاتها ؟ لا يكاد « لوك » يتصدى لهذه المشكلة وإن كان يقر بصعوبتها ، وإنما يؤكد ضرورة أن تأتى أفكارنا البسيطة متسقة مع الواقع . إلا أننا ينبغى أن نفرق بين الوجود الحقيقى للأشياء الماثلة لحواسنا والأفكار الممثلة لها . وعندما تأتينا الأفكار من الذاكرة فى غيبة موضوعاتها الحسية تكون المعرفة احتمالية . فعندما أرى الشمس فعلا أعلم أنها موجودة على الحقيقة أما عندما تخطر بذهنى فكرة الشمس ليلا وأتوقع على هذا عودتها إلى الظهور فى الصباح لا يكون هذا إلا حكم احتمالى ، وإن يكن يصل عملياً إلى مرتبة اليقين .

وإدراك الأشياء الخارجية ينطوى ضمناً على إدراكنا لذاتنا . فلا يتأتى لنا أن ندرك الأشياء الخارجية دون أن يكون لدينا إدراك بحقيقة الذات . كيف أسمع وكيف أبصر شيئاً ما خارجاً عنى دون أن أعرف على نحو أوثق أن ثمة كائناً يبصر ويسمع هو أنا ، فكل إدراك لما هو غيرى هو فى الآن نفسه إدراك لأناى .

ومما تقدم يمكننا أن نلخص الأركان الأساسية للمعرفة عند « لوك » على النحو التالى :

أولا : الموضوعات الخارجية موجودة وجوداً مستقلا عن معرفتنا بها . ويمكن لهذه الموضوعات أن تستمر فى الوجود حتى لو لم يكن هنالك أفراد يدركونها . والأفكار من جهة أخرى تعتمد على نشاط الذهن أى النشاط العقلى بالرغم من أنها لا يمكن أن تتقوم وتتشكل إلا إذا كانت عناصرها مستمدة أصلا من الإحساس .

ثانياً : الموضوعات الخارجية أى الأشياء لها صفات لا تستمد من العقل ، وعلى ذلك فالأفكار التى تمثل الصفات فى العقل ليست مستمدة منه ، وإنما هى مستمدة أصلا من الصفات الأولى فى الأشياء أعنى الكيفيات البسيطة ، فمثل هذه الكيفيات تعتبر إذن حقيقيـــة .

ثالثاً : الأشياء الخارجية وصفاتها لا يؤثر فيها أننا نعرفها ، ولكن الأفكار تخضع لتأثير العقل كمرحلة ثانية بعد استقبال العقل فى المرحلة الأولى للأفكار البسيطة .

رابعاً : لا توجد الأشياء الخارجية على نحو ما تبدو عليه الأفكار المركبة (الجوهر ، العلية ، الهوية . . الخ) بل على نحو ما تكون الأفكار البسيطة (اللون ، الشكل ، الطعم . . الخ) ذلك لأن الأفكار المركبة ليس لها مقابل حسى خارجى مباشر . وعلى ذلك فما دام العقل يبنى هذه الأفكار المركبة بناء مختلفاً عن البناء الواقعى للأشياء ، فكل معرفة تمثل الأفكار المركبة (البرهانية ، الاحتمالية) ليست معرفة وثيقة شأن

المعرفة المستمدة من الأفكار البسيطة (الإدراكية ، الحدسية) . وعلى ذلك فالمعرفة المبنية على الأفكار المركبة عرضة للخطأ .

والملاحظ أن موقف « لوك » هنا على نقيض موقف « ديكارت » . فنقطة البداية عند « لوك » هى إنكار كل أساس فطرى للمعرفة — بيد أن تمييز « لوك » بين أفكار بسيطة وأفكار مركبة يفضى حتما إلى التسليم بأن هنالك أفكاراً ذاتية ، وما دام الفيلسوف التجريبى قد سلم بمثل هذه الأفكار فقد فتح فى مذهبه ثغرة تمكن أنصار المذهب العقلى من البرهنة على أن جميع الصفات ذاتية وليس ثمة صفات قائمة بالفعل فى الأشياء .

لقد وضعنا « لوك » فى مأزق ، فهنالك أفكار من ناحية وهنالك أشياء خارجية من ناحية أخرى : ولم يستطع « لوك » أن يعزز لنا ذلك اليقين الذى نسعى إليه فى خطواتنا العلمية وهو يقين لا يمكن أن نستند فيه إلى شهادة الحس ، بل لا محيص عن أن ينبع من النشاط العقلى ، وهو ما سلم به « لوك » ضمناً فى تمييزه بين الأفكار البسيطة والأفكار المركبة وقوله إن للعقل فى تأليف الأخيرة نشاطاً إيجابياً . ولكنه سرعان ما يتراجع فيذكر لنا أن الأفكار البسيطة التى يؤدى العقل فيها دوراً سلبياً أشد يقيناً ومتانة من الأفكار المركبة .

٤ — اللغة والفكر :

أهم ما يبسطه « لوك » فى العلاقة بين اللغة والفكر ، تلك النقائص التى لا مفر منها فى استخدام اللغة والأخطاء التى نقع فيها نتيجة الإهمال ، والوسائل التى يرى أنها كفيلة بتلافيها .

فاللغة يمكن أن تستخدم للتسجيل الخاص لأفكار الفرد ، وفى هذه الحالة يكون الفرد حراً تماماً فى اختيار رموز لغته ، ولا يستلزم ثمتئذ إلا أن يكون هناك اتساق بين الرموز واتفاق عليها لنقلها إلى الآخرين ، بحيث تعنى الكلمة ذات الفكرة عند المتحدث من جانب وعند المستمع من جانب آخر . هذا مثل أعلى تحول دون تحققه أسباب أهمها اثنان :

١ — حيثما كانت الفكرة التى ترمز إليها الكلمة مركبة كان من اليسير على المستمع أن يغفل جانباً من مضمونها قصد إليه المتحدث أو أن يضمنها شيئاً أغفله المتحدث ، ومن ثم فهما لا يستخدمان الكلمة بنفس الطريقة ولن يكون فى مقدورهما أن ينقلا خواطرهما الواحد منهما إلى الآخر نقلا خالصاً .

٢ — قد لا يكون للفكرة أى ارتباط فى الطبيعة وبالتالى لا يكون لها نمط ثابت يستطيع المستمع أن يفحصها على ضوئه ، مثل ذلك فكرة الجمال أو النعمة .

وبينما لا نحتاج إلى الدقة فى الاستخدام الجارى للغة فى الحديث العادى تتضح هذه الدقة ضرورية فى نقل الحقائق العلمية . فهنا لا بد من فحص الكلمات الدالة على أفكار الجواهر والضروب المختلطة بما فى ذلك العلاقات فحصاً بالغ العناية . وليس الأمر بهذه الخطورة فى حالة أسماء الأفكار والضروب البسيطة . ذلك لأن كلمة « أزرق » تفهم فوراً فى معناها التام ، يفهمها كل من رأى الأزرق أو كل من يعرف أن الكلمة تشير إلى ذلك اللون . وكذلك الضروب البسيطة فمعنى ٧ أو مثلث واضح على أكمل وجه .

إن هناك نقائص لا مفر منها فى الكلمات وبخاصة الدال منها على أفكار الضروب المختلطة والجواهر . وثمة نقائص أخرى فى استخدام اللغة يمكن أن نتجنبها وهى تعزى إلى الخطأ والاهمال يجملها « لوك » فى سبع :

١ — نحن قد نستخدم كلمات لا تكون لدينا أفكار مطابقة لها فنردد أصواتاً كالتى يرددها الببغاء .

٢ — قد نستخدم الكلمات فى غير ثبات ، فنعبر بكلمة واحدة عن مجموعة من الأفكار البسيطة .

٣ ــ قد نؤثر الغموض لنخلع على كلماتنا إهاباً من الروعة والفخامة نخفى به ما فى خواطرنا من خلط ولبس ، ويشدد « لوك » هنا النكير على المناطقة والمحامين .

٤ ــ قد نأخذ الكلمات على أنها الأشياء أعنى أننا قد نقع فى غلطة افتراض أنه حيثما كانت هنالك كلمة فلا بد أن يكون هنالك شىء مطابق لها .

٥ ــ نجعل كلمات تقوم مقام أشياء لا نستطيع الدلالة عليها .

٦ ــ نستخدم كلمات معناها واضح لنا غير عابئين بأن نجعل هذا المعنى واضحاً للآخرين .

٧ ــ نكثر من كلمات الاستعارة والكناية والتشبيه .

ولئن اغتفر هذا فى الحديث والشعر فهو لا يغتفر فى معرفة حقائق الواقع .

ويقترح « لوك » بعض الوسائل لملافاة هذه العيوب

١ ــ ينبغى الاحتياط بحيث إذا استخدمنا كلمة فلا بد أن نكون على بينة من الفكرة التى تدل عليها .

٢ ــ ينبغى معرفة هذه الفكرة بدقة وتميز . فإذا كانت الكلمة تدل على فكرة بسيطة لزم أن تكون هذه الأخيرة واضحة ، وإذا كانت تدل على فكرة مركبة وجب أن تكون هذه متحددة بحيث نعرف الأفكار البسيطة التى نجمت عنها وأن تكون هذه الأفكار البسيطة واضحة .

٣ ــ ينبغى احترام المواضعات المتبعة فى استخدام اللغة ، وأن تستخدم الكلمات ، كلما أمكن ذلك ، فى اتساق مع الاستخدام المألوف لها .

٤ ــ إذا انحرفنا عن الاستخدام المألوف ينبغى أن نبين بأية طريقة نفعل ذلك . وكذلك حيثما كان هناك ثمة شك حول الاستخدام الملائم للكلمة ينبغى أن نجعل استخدامها واضحاً . ففى حالة أسماء الأفكار البسيطة نسوق الأمثلة وفى حالة الضروب المختلطة نلوذ بالتعريف ، وفى حالة الجواهر نجمع بين ضرب الأمثلة والتعريف .

٥ ــ يجب بقدر الامكان استخدام الكلمة ذاتها فى نفس المعنى باطراد . ولكن لسوء الحظ نضطر فى كثير من الأحيان إلى استخدام ذات الكلمة فى معانى مختلفة عن بعضها اختلافاً طفيفاً .

ويأمل « لوك » أنه بالأخذ بهذه القواعد تأتى الكلمات صنواً دقيقاً للأفكار ويمتنع الخلط والتمويه .

ثالثاً : نصوص مختارة(١)

الجهل يتخطى معرفتنا تخطياً لا حد له :

لما كانت معرفتنا غاية فى الضيق ، كما بينت ، فقد يمدنا بقبس من النور أن نلقى نظرة على الجانب المظلم وأن نحيط بجهلنا ، وهو من حيث كونه أوسع مما لا نهاية من معرفتنا ، قد يعيننا كثيراً على تهدئة المنازعات وعلى تنمية المعرفة النافعة لو قصرنا خواطرنا ، حين نكتشف إلى أى مدى تكون لدينا أفكار واضحة ومتميزة ، فى حدود تأمل تلك الأشياء التى تكون فى متناول مفاهيمنا ، ولا نلقى بأنفسنا فى هوة الظلام (حيث لا تكون لنا عيون نرى بها ، ولا ملكات تدرك أى شىء) على زعم ألا شىء يتخطى دائرة إحاطتنا . إننا لكى نقنع بخرق هذا التصور الأخير ، لا نحتاج إلى أن نمضى بعيداً . فكل من يعرف شيئاً يعرف فى المقام الأول أنه ليس فى حاجة إلى البحث

---

(١) ارجع إلى « مبحث فى الفهم الإنسانى » فى جزئين (الأول يشمل البابين الأول والثانى ، والجزء الثانى يضم البابين الثالث والرابع) نشره مع مقدمة مستفيضة « ألكسندر كامبيل فريزر » سنة ١٨٩٤ ــ أكسفورد .

John Locke : An Essay Concerning Human Understanding (Collated and Annotated, by A.C. Fraser). Oxford, 1894.

طويلا عن أمثلة على الجهل . فأحقر وأوضح الأشياء التى نصادفها فى طريقنا لها جوانب مظلمة لا تستطيع النظرة العجلى أن تنفذ إليها . وأوضح الأفهام وأوسعها عند المفكرين ، تقف حائرة مغلوبة على أمرها إزاء كل جزئية من جزئيات المادة . إننا لن نعجب من أن يكون الأمر على هذا النحو حين ندخل فى اعتبارنا أسباب جهلنا التى أفترض ، مما سبق بيانه ، كونها ثلاثة أسباب : أولا — الحاجة إلى أفكار . ثانياً — الحاجة إلى علاقة تكتسب بين الأفكار التى لدينا . ثالثاً — الحاجة إلى تحديد الأفكار وفحصها » .

(ج ٢ ص ٢١٢—٢١٣)

الفهم بدون تجربة ، أشبه بالحجرة المظلمة :

« . . . . . تلكم هى الطريقة الوحيدة (يعنى التماس المعرفة من التجربة) التى أستطيع أن أكتشفها والتى تأتى بواسطتها أفكار الأشياء إلى الفهم . فإذا كان لدى البعض أفكار فطرية أو مبادئ منزلة ، ينعم بها العقل ، وإذا كانوا مستوثقين من ذلك ، فمن المستحيل على الآخرين أن ينكروا عليهم تلك الميزة التى يبزون بها أقرانهم . أما أنا فحسبى أن أتحدث عما أجده فى نفسى :

إننى لا أزعم أننى أعلم ، وإنما أنا أبحث ، ومن ثم فليس فى مستطاعى إلا أن أقر هنا ثانية بأن الإحساس الخارجى والإحساس الباطنى لا يعدوان أن يكونا طريقين للمعرفة يستخدمهما الفهم ، وهذا هو ما يسعنى أن أجده . هذان الطريقان وحدهما ، بقدر ما أستطيع أن أكتشف ، هما النافذتان اللتان ينفذ منهما الضوء إلى الحجرة المظلمة » .

(ج ١ ص ٢١١ — ٢١٢)

عن حدود المعرفة :

إن المعرفة ، كما ألمعنا ، تكمن فى إدراك الاتفاق أو الاختلاف فى أية فكرة من أفكارنا ، ويترتب على ذلك :

أولا : لا يمكن أن تكون لدينا معرفة أبعد مدى مما لدينا من أفكار .

ثانياً : لا يمكن أن تكون لدينا معرفة أبعد مما يمكن أن يكون لدينا من إدراك لذلك الاتفاق أو الاختلاف . هذا الإدراك يكون (١) إما إدراكاً بالحدس ، أو المقارنة المباشرة بين فكرتين ، (٢) أو بالعقل بفحص الاتفاق أو الاختلاف بين الفكرتين بتدخل أفكار أخرى ، (٣) أو بالإحساس بإدراك وجود الأشياء الجزئية » . (ج ٢ ص ١٩٠)

عن المعرفة الحدسية :

تتألف معرفتنا كلها ، كما ذكرت ، فى النظرة التى تكون للذهن على أفكاره ، وهذه النظرة هى أقصى ضوء وأعظم يقين يكون فى مقدورنا بملكاتنا وفى طريقنا إلى المعرفة ؛ فليس من ضياع الوقت أن نتأمل بعض الشىء فى درجات وضوحها . إن الوضوح المختلف لمعرفتنا يبدو لى كامناً فى الطريقة المختلفة للادراك التى يمارسها الذهن فى الاتفاق والاختلاف على فكرة من أفكاره . ذلك لأننا لو تأملنا فى طرائقنا فى التفكير ، سنجد أن الذهن يدرك أحياناً اتفاق فكرتين أو اختلافهما إدراكاً مباشراً منهما دون تدخل أية فكرة أخرى . وهذا ، فى ظنى ، ما يمكننا أن ندعوه معرفة حدسية . ذلك لأن الذهن هنا لا يتجشم أدنى مشقة فى البرهنة أو الفحص ، بل يدرك الحقيقة كما تدرك العين الضوء بأن تتجه إليه . وعلى هذا النحو يدرك الذهن أن الأبيض ليس أسوداً ، وأن الدائرة ليست مثلثاً ، وأن الثلاثة أكثر من الأثنين وتساوى ١ + ٢ . مثل هذه الأنواع من الحقائق يدركها الذهن عند النظر لأول مرة فى الأفكار معاً ، بالحدس الخالص ، دون تدخل أية فكرة أخرى ، وهذا اللون من المعرفة هو أوضح وأيقن لون فى مقدوره . هذا الجانب من المعرفة لا يقاوم ، وهو ،

كالشمس الساطعة ، يفرض علينا أن ندركه مباشرة حالما يتجه الذهن نحوه ، ولا يدع مكاناً للتردد والشك أو الفحص ، بل يغمر الذهن فوراً سناه الوضاء . على هذا الحدس يعتمد كل يقين وكل وضوح فى معرفتنا .

(ج ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧)

العقل والمعرفة البرهانية :

لكلمة « عقل » فى اللغة الإنجليزية دلالات مختلفة . فهى تدل أحياناً على المبادئ الصحيحة والواضحة ، وأحياناً على العلة ، وبوجه خاص العلة الغائية . ولكننى سأعتبرها هنا ذات دلالة مختلفة عن ذلك كله ، أعنى أنها تعبر عن ملكة فى الإنسان يتميز بها عن السائمة ، ويكون من الجلى أنه يتخطاها بفضلها .

* * *

وإذا كانت المعرفة العامة ، كما بينا ، تتألف فى إدراك الاتفاق والاختلاف بين أفكارنا الخاصة ، ومعرفة وجود جميع الأشياء الخارجه عنا (باستثناء الله وحده ، حيث أن وجوده يعرفه كل إنسان معرفة يقينية ويبرهن على ذلك من وجوده الخاص) نحصلها بحواسنا فقط ، فأى مكان يكون لممارسة أية ملكة أخرى ، غير الحس الخارجى والإدراك الباطنى ؟ وما وجه الحاجة إذن إلى العقل ؟ إن حاجتنا إليه لعظيمة جداً لتوسيع معرفتنا .

(ج ٢ ص ٣٨٥ — ٣٨٦)

(. . . ويمكننا فى العقل أن ندخل فى اعتبارنا الدرجات الأربع التالية : الأولى : وهى أعلاها ، اكتشاف الحقائق والوصول إليها . والثانية : تنظيمها وترتيبها ترتيباً منهجياً ووضعها فى سياق واضح صالح ، ليتيسر إدراك ارتباطها وقوتها . الثالثة : إدراك ارتباطها . والرابعة : الوصول إلى نتيجة صحيحة. هذه الدرجات الأربع يمكن أن نلاحظها فى أى برهان رياضى : فنحن ندرك ارتباط كل جزء بالجزء الآخر حين نقيم البرهان ، هذا جانب ، وجانب ثان أن ندرك اعتماد النتيجة على جميع الأجزاء ، وجانب ثالث أن نجعل البرهان واضحاً جلياً فى ذاته ، وجانب مختلف عن هذه الجوانب الثلاثة كلها ، أن نجد لأول مرة هذه الأفكار والبراهين الوسيطة التى تشكل منها البرهان » .

(ج ٢ ص ٣٨٧)

عن الأفكار المركبة :

لقد اعتبرنا إلى الآن تلك الأفكار التى لا يعدو الذهن فى تقبلها أن يكون سلبياً ، ألا وهى الأفكار البسيطة التى نستقبلها من الإحساس والإدراك ، كما ألمعنا ، ويترتب على ذلك أن الذهن لا يستطيع أن يشكل فكرة أو أن تكون لديه فكرة لا تتألف منها . ولكن مع كون الذهن سلبياً فى استقبال جميع أفكاره البسيطة ، نراه ينهض بمجموعة من الأفعال الخاصة به ، حيث يشكل أفكاراً جديدة تكون أفكاره البسيطة خامات وأسساً لها . وأفعال الذهن التى يمارس بها نشاطه على الأفكار البسيطة هى ثلاثة أفعال رئيسية : (١) جمع أفكار بسيطة عديدة فى فكرة واحدة مجمعة وهكذا تشكل جميع الأفكار المركبة . (٢) الجمع بين فكرتين سواء أكانتا بسيطتين أم مركبتين جنباً إلى جنب بحيث ينظر نظرة شاملة دون توحيدهما فى فكرة واحدة ، وبهذه الطريقة يصل إلى جميع أفكار العلاقات . (٣) فصل الأفكار عن جميع الأفكار الأخرى التى تصحبها فى الوجود الواقعى ، ويطلق على هذا التجريد، ويشكل بذلك جميع أفكاره العامة .

(ج ١ ص ٢١٣ — ٢١٤)

فكرة العلاقة أوضح من الأشياء التى تربط بينها :

لئن كانت العلاقة غير متضمنة فى الوجود الواقعى للأشياء ، ولكنها خارجة عنها ومستقرأة منها ، إلا أن الأفكار التى تعبر عنها الكلمات الدالة على علاقات ، هى

فى كثير من الأحيان أوضح وأشد تميزاً من تلك الجواهر التى تنتمى إليها بالفعل . فالتصور الذى لدينا عن الأب أو الأخ أوضح بقدر كبير وأشد تميزاً من التصور الذى لدينا عن الإنسان . أو ، إذا شئت ، من الأيسر أن تكون لدينا فكرة عن الأبوة من أن تكون لدينا فكرة عن الإنسانية ، ويمكننى بيسر أعظم أن أتصور ما يكونه صديق من أن أتصور ما يكونه الله ، ذلك لأن المعرفة بفعل واحد أو فكرة واحدة بسيطة ، هى فى معظم الأحيان كافية لتزويدى بفكرة علاقة . ولكن معرفة جوهر موجود تستلزم تجميعاً دقيقاً لأفكار شتى . إن أى شخص حين يقارن بين شيئين ، من الصعب افتراض أنه لا يعرف جلية الأمر حين يقارن بينهما ، وعلى ذلك فهو حين يقارن بين شيئين تكون لديه فكرة واضحة جداً عن تلك العلاقة . ومن ثم ، فأفكار العلاقات قادرة على الأقل أن تكون أكمل وأميز فى أذهاننا من أفكار الجواهر . فلما كان من العسير عامة أن أعرف الأفكار البسيطة التى تشكل علاقة ما أفكر فيها أو لدى اسم لها ، مثلما أقارن بين شخصين من حيث انتماؤهما إلى أب واحد ، فمن غاية اليسر أن نشكل أفكار الأخوة دون أن يكون لدينا بعد فكرة كاملة عن الإنسان .

(ج ١ ص ٤٣٠ — ٤٣١)